الحنفية: دين إبراهيم عليه السلام ودين كل المسلمين

عادل حامد محمد.
الحنفية: دين ابراهيم عليه السلام ودين كل المسلمين/ تأليف عادل حامد محمد .- ط١ .- القاهرة: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩.
١٥٦ص ؛ ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٢٨٧٩٢٣٤

عرض وتلخيص
عبد التواب يوسف

الإبراهيميون: أصحاب الديانات السماوية

عندما رأيت هذا الكتاب "الحنفية" مع صاحبه مددت إليه يدى أكاد أختطفه فى لهفة، سلمنى إياه فى مودة وأريحية، عيناه تطل منهما نظرات تساؤل ودهشة، قلت أجيب عليها دونما ينطق بكلمة:

- إننا فى أمس الحاجة لمثل هذا الكتاب فى ظروفنا الراهنة، ابتسم فى رضا، فسألته مداعبًا:
- هل تعرف لماذا نطلق على صنبور الماء "الحنفية" ؟
• طبعًا ، فقد كانت هناك جماعة ممن يقفون أمام كل جديد، وفى وجه كل تقدم "أفتوا" بأن الوضوء من "الصنبور" حرام ورفض أبو حنيفة ما قالوا به، وأكد على أنه حلال، لا حرمة فيه مطلقًا، وتكريمًا له وتخليدًا لاسمه الكريم والكبير أطلقوا على الصنبور "الحنفية".
- قلت له: أحسنت.
- شكرًا، لكن كتابى عن الحنيفية
- أعرف، ويدهشنى أن تكتب تحت العنوان: "دين إبراهيم عليه السلام ودين كل المسلمين".
- ما الذى يدهشك فى هذا؟
- نحن نقول "إبراهيم" عليه الصلاة والسلام، ونؤكد على ذلك فى "التشهد": اللهم صلّ على سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم، "ثم أن الحنيفية" ليست فحسب دين كل المسلمين، بل دين كل المؤمنين بالديانات السماوية؛ لأن سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم أبو الأنبياء كما نعرف، هز أ.عادل حامد محمد رأسه موافقًا على ما قلت، وعقب:
- سنغير هذه الكلمات إذا ما كانت هناك طبعة ثانية من الكتاب.
- بل أقطع بأنه ستكون هناك طبعات وطبعات؛ لأنه كتاب يقرب ما بين

الديانات السماوية والمؤمنين بها فى فترة يحتدم فيها الخلاف بينهم، وتمادوا فيه وصولاً إلى صراع دموى مأساوى.

حملت كتاب "الحنيفية" معى، ممنيًا نفسى بجلسات إليه ثرية وممتعة، وقلبته بين يدى، وإذا بالمؤلف يشكو من ندرة المراجع فى موضوعه، لكنه فى الصفحات الأخيرة للكتاب يورد ما يزيد على سبعة وعشرين مرجعًا؛ لذلك نجد أنفسنا أمام مادة دسمة، ثرية، فى أول كتاب يصدر عن الدين الحنيفى الذى نزل على سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الجد الأكبر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ونردف اسميهما الكريمين بهذا الدعاء، أما بقية النبيين فنذكر كلاً منهم ومن بعده عليه السلام..

وصفحات الكتاب مرصعة بآيات من الذكر الحكيم، إذ اعتمد الكاتب على القرآن الكريم، خير معين له، ويورد فى المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

"ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفًا واتخذ الله إبراهيم خليلاً" صدق الله العظيم (سورة النساء – آية ١٢٥) والقرآن الكريم حفى كل الحفاوة بسيدنا إبراهيم "ص"، الجد الأكبر لسيدنا محمد "ص"، وقد ورد ذكر اسم إبراهيم فى القرآن الكريم عشرات المرات، مؤكدًا على أنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

"ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا لكنه كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين" (آل عمران – آية ٢٧)

وليس لنا بعد هذا أن نسأل أو نتساءل:

- كيف كان مسلمًا قبل أن يجيء الإسلام؟

ونتوقف عند كلمة "حنيفًا"، ماذا تعنى؟

وماذا يقول عنها المعجم والموسوعة:

المعجم الوسيط يقول:

(حنف) الرجل: اعوجت قدمه إلى الداخل، (تحنف) الرجل: اعتزل عبادة الأصنام وأسلم وتعبد الحنيفية فى الإسلام فى دائرة معارف القرن العشرين هى صدقة الميل إليه، وألا نتفرق فيه، وأن نؤمن بأن الآخرة خير وأبقى، كما جاء فى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى..

ويورد كتاب "الحنيفية" فصولاً أربعة موجزة مركزة عن الصلاة والزكاة والصوم والحج، ويعود بنا إلى نشأتها الأولى، ويركز عليها باعتبارها أعمدة بناء الدين، ويسبقها بالطبع الإيمان بوجود الله وأن لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى.. هذا ما يجب أن يقر فى النفوس، ويرسخ فى العقول، ويعمق فى القلوب، كشجرة تضرب بجذورها فى الأرض، وتمتد فروعها وأغصانها عاليًا إلى السماء..

هذا هو الجديد الذى يؤصل به المؤلف "العبادات" من قديم الزمان، فهى ليست بنت اليوم، ولكنها عريقة منذ أيام إبراهيم "ص".. ونحن مكلفون بها كصلة وثيقة ما بين الله جل جلاله وبين المؤمنين به، الحامدين الشاكرين له، على كريم نعمائه، غير مشركين به أحدًا..

ومن بعد "العبادات" يكتمل إيمان المرء بما نراه الجناح الثانى الذى يحلق به فوق ما

تغريه الدنيا الفانية، والمقصود به "المعاملات" التى تقود إلى الفوز بالآخرة، إذ بهما معًا يكتمل الإيمان: العبادات هى العلاقة بالله، والمعاملات هى علاقاته بالناس.. ومن بعدهما يأتى الحديث عن العلاقة بين الإنسان ونفسه، وهو أمر بالغ الأهمية، وهناك من يفخر بنفسه ويزدهى بها، ليصل إلى حد الغرور.. وهناك من يجلد ذاته، ويعنف مع نفسه مما قد يورده مورد الهلاك بالانتحار..

ونحن نمضى مع الكتاب حثيثًا، وخطوة بعد خطوة، بلا رغبة من جانبنا فى أن نخرج عليه، ودون أن نأتى بالكثير من عندنا؛ لأننا أمام عمل جليل، لا يحلو لنا أن نضيف إليه أو نحذف منه، وكل ما نصبو إليه أن نفهمه ونستوعبه، وربما نستلهمه، إذ لا نلتقى بمثيله كل يوم، فهو متفرد فى بابه، ويطيب لنا أن نحيط بما فيه، وألا نغفل عن شاردة من محتواه.. والحقيقة أن قراءته تحتاج لمنهج جديد، إذ يتوازى معها ما نعتقد فيه وما نؤمن به، والتوازى هنا لا يعنى أنه لا لقاء بين الخطين، بل نقصد أنه لا خلاف ولا تصادم، فهما يمضيان قدمًا نحو مزيد من الحياة فى نور الإيمان واليقين بعيدًا عن التطرف والانحراف والهدمية، إذ فى تصورنا أن قراءة هذا الكتاب أشبه ما تكون بحالة فريدة من التصوف.

عند هذه النقطة، جدير بنا أن نتوقف لنتساءل:

- ماذا عن السلبيات؟ وماذا عن الجوانب المظلمة؟ هل فاتت المؤلف للكتاب؟

من المؤكد أنها لم تفته .. فهى جديرة بالدراسة، وتوضيح منهج الحنيفية فى معالجتها .. لأن هناك كبائر ومحرمات، لا بد من التصدى لها، خاصة وأن العالم يعيش منذ بداية النهضة الأوروبية عصر وحضارة قائمة على "المادية"، وقد تنامت الاختراعات بعد اكتشاف طاقة البخار، وآلته، فاندفع الناس تجاهها. ففى الغرب أصبح الإنسان يساوى ما يملكه من مادة، وتأكد لى ذلك من سؤال طرحه علىّ أستاذ أمريكى فى واحدة من الجامعات الكبرى، يريد أن يعرف توزيع الثروة فى مصر .. طالبته أن يحدثنى عما فى بلده ليساعدنى على أن أجيب، قال:

- ما بين ١٠% و١٥% أثرياء، ومثلهم فقراء والباقون ما بين ٧٠% و٨٠% طبقة متوسطة قلت له: شكرًا.. أرحتنى كثيرًا .. ما بين ١٠% و١٥% أغنياء، ومثلهم طبقة متوسطة، والباقون فقراء .. سأل: ومن يحكم؟

لم أكن بحاجة للرد، هى دردشة حول فنجان شاى لا أكثر، وقد مضت الرأسمالية بالعالم نحو الهاوية.. أما شرقًا، فقد صار الإنسان وفق نظريات ماركس ولينين مسمارًا فى آلة، وفرغ ما عنده من قيم معنوية وروحية، وتفككت الآلة..

وما من أمل مستقبلا إلا فى حضارة تعلى من هذه القيم، بعد أن ساد الفساد دولاً، وأفرادًا..

وأصبحت الكبائر ترتكب ليل نهار، ما عادوا يتباعدون بينهم وبين المحرمات..

- هل انتهت الشريعة الحنيفية- لا قدر الله- من دنيانا؟ وما موقف الأديان السماوية الثلاثة مما يحدث ويجرى؟

هل تتنازع وتتصارع لتذهب ريحها أم تتصالح وتتكاتف من أجل صالح الإنسان على هذه الأرض؟

الكتاب يشير إلى أن الموبقات والمحرمات قد اجتاحت الدنيا، وأن ما أتت به الأديان- كالوصايا العشر- قد قارب أن يكون فى خبر كان، وأن الكبائر ترتكب فى كل مكان..

- ما الحل، يا بشر، وقد بعث الله بكتبه ورسله؟ ألم يمنحنا سبحانه وتعالى عقولاً تفكر؟!

نحن لم نجتز سوى ربع صفحات الكتاب.. وقد وصلنا فى عرضه إلى صفحات يقدم فيها قصة حياة سيدنا إبراهيم وولديه: إسماعيل، وإسحاق عليهما السلام..

وهو يستقى مادته من نبع صادق فياض: من القرآن الكريم.. الذى هو لكل زمان ومكان.. وبالتالى نحن لسنا أمام مجرد "تاريخ" قديم، بل نحن أمام ماضٍ يسلط ضوءه على ما هو قائم اليوم، وما سيأتى به قادم الزمان.. وهذا ما يجعله مغايرًا لما تعودناه؛ لأن هدف الكاتب هنا واضح ومحدد، ويظهر جليًا بعد السرد التاريخى الذى يتضمن ما قام به كل من يوسف وموسى- عليهما السلام- فى مصر للعودة إلى الحنيفية، وهو فيما نتصور طرح جديد، يلفت الكاتب نظرنا إلى دور ورسالة قاما بها، فى حين ركز المؤرخون على علاقتهما بالفرعون، والصراع معه، فقد ألقى بيوسف عليه السلام فى السجن بتهمة ملفقة، ثم استوزره، كما طارد موسى وهارون عليهما السلام. واسترعت هذه الأحداث المؤرخين دون أن يلتفتوا إلى المهمة "التدينية" التى حاولا القيام بها..

كان هدف الكاتب هنا تتبع مسيرة الحنيفية؛ لكى يصل بنا إلى حاضرها ومستقبلها، ولم يفته أن يشير إلى علاقة بنى إسرائيل بها، ثم كيف كانت فى جزيرة العرب.. بل وموقف الشعراء العرب منها، وقد كانوا هم الصفوة والنخبة، ومن قصائدهم نتعرف على صلتهم بها، ومن المثير أنه عرف من بينهم شعراء أحناف، مثل ورقة ابن نوفل، المسيحى الذى لم يعبد الأصنام، ولجأت إليه السيدة خديجة ابنة عمه تسأله عما حدث عندما نزل الوحى على الرسول "ص"، وأكد لها أنها (النبوة)، وفى أشعاره ظهرت لمحات من الحنيفية، هو وزيد بن عمرو بن نوفل، وأمية بن أبى الصلت، وقس ابن ساعدة، وسيف بن ذى يزن بطل السيرة الشعبية الشهير..

هذا يعنى أن الحنيفية لم تختف ولم تغب قط منذ عرفتها الدنيا على يد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويزداد العارفون بها، والمعتنقون لها فى فترات المد الدينى، وقد يقل عددهم عندما تسود المادية ويتكالب الناس على الثروة والمال، ويعيشون حياتهم الدنيا متناسين أو ناسين الحياة الأخرى التى هى خير وأبقى.

الطريف أنك بعد أن تقرأ الكتاب تشعر بأن الكاتب قد لجأ إلى النهايات المفتوحة التى يصطنعها الروائيون فى أعمالهم، وتجعل القارئ يتساءل:

- وماذا بعد؟

شخصيًا أحسست أن الكاتب ترك للقارئ فرصة ليفكر فى إجابات على هذا التساؤل، بل قد يحفز واحدًا مثلى على أن يضيف فصلًا، أو أكثر من فصل حول مصير الحنيفية، وهل يمكنها أن تكون مفيدة لما يجرى الآن من حوار بين الأديان.

الحنيفة، كانت البداية، وبعدها توالت الأديان عنها، ومنبثقة منها، ألا يمكن أن نرجع إليها بحثًا عن نقاط الالتقاء فيما بينها، والكشف عن مساحات اتفاق قد تتيح مع التسامح؛ لتفادى الخلافات والصدامات الناجمة عن البحث عن حلول لها بديلة، ترسى أسسًا للتعامل والتعاون؛ مما يتيح فرصة للسلام والوئام، والإنسان يسعى منذ وجد إلى تحقيقهما، ويناضل من أجل هذا نضالاً باسلاً ورائعًا لحقن الدماء وتفادى كوارث الحرب.

هذا الكتاب فى تقديرنا محاولة مبهرة لجعل المؤمنين بالديانات السماوية أقرب ما يكونون كلهم على دين واحد، أليسوا جميعهم "إبراهيميين" إن صح هذا التعبير؟!.. والاختلاف بينهم لا يتجاوز أن يكون أن كلا منهم يعبد آلهًا واحدًا بطريقته الخاصة لا أكثر ولا أقل.. إن هذا يقرب كثيرًا بين أبناء الديانات السماوية، وهو يذكرنا بما قاله كاتبنا الكبير توفيق الحكيم حين وجد نفسه فى كنيسة فى باريس، عندما كان طالب بعثة، أو هو "عصفور من الشرق" يؤدى العزاء.. قال:

- إن بيت الله هو بيت الله فى كل زمان ومكان.. أتصوّر، وهذه الأديان تدعو للتسامح والتعاون من أجل خير الإنسان على الأرض أن نتبنى هذا اللون من الفكر الذى يوحدنا ويربط بيننا برباط قوى، نتناسى معه هذه الاختلافات، إذ لدينا أرضية مشتركة، هى "الإبراهيمية"..

إنه طرح جديد أتى به كتاب الحنيفية لكاتبه أ.عادل حامد محمد، ترانا خرجنا منه على السياق لنحظى بإساءة الفهم، وأن ما أتيناه ما هو إلا أثم كبير وجرم عظيم.. وسوف نستحق عليه نار جهنم.